من كتب الشرق والغرب

هز القحوف

هذا كتاب طريف ألف فى العصر العثمانى لغرض التقليس والتندير على أهل ريف مصر وبيان ما هم عليه من فقر وبؤس وجهل، ألفه شخص يسمى يوسف الشربينى، وكان — على ما يظهر من كتابه — عالما واعظا، وقد نظر من حوله، فرأى السواد الذى كان يغطى أودية مصر فى العصر العثمانى، ورأى معه تعاسة أهل الريف، فنظم قصيدة سماها قصيدة أبى شادوف يصور فيها الشقاء المحيط بهم. والشادوف آلة معروفة فى مصر يسقى بها الزرع، وقد يسمى أهل الريف شخصاً باسم أبى شادوف لغرض الضحك عليه والسخرية منه. ومن ثم سمى يوسف الشربينى قصيدته باسم قصيدة أبى شادوف. وهى قصيدة من بحر الطويل، ولكن لا تظن أنها ألفت باللغة العربية فهى عامية خالصة، وقد وصف فيها حياة رجل الريف فى عصره بجميع صورها وألوانها، من أكله، إلى عمله فى حقله، إلى صلته بالحكومة فى عهده، وهو يسوق ذلك فى فنون طريفة من الهزل والسخرية والفكاهة.

ولم يكتف يوسف الشربينى فى وصف حال رجل الريف بهذه القصيدة، بل ذهب يشرحها على طريقة معاصريه فى شرح القصائد الجدية، وهو شرح طويل اختار له هذا الاسم الغريب « هز القحوف ». وهو يتقدم هذا الشرح بقوله: « إن مما مر على من نظم شعر الأرياف، قصيد الموصوف بكثافة اللفظ بلا خلاف، قصيد أبى شادوف، فوجدته قصيداً يأله من قصيد، كأنه عمل من حديد، أو رص من قحوف الجريد. فالتمس منى من لا تسعنى مخالفته، ولا يمكننى إلا طاعته، أن أضع عليه شرحاً يحل ألفاظه السخيمة، ويبين معانيه الذميمة، وأن أتحفه بشرح لغات الارياف، وذكر فقهائهم الجهال وفقرائهم الأجلاف. فياله من شرح لو وضع على الجبل لتدكدك. ولو نقش على عمود الصوارى لتحرك. وهو شرح عديم النظير فى الكثافة، لكونه فى معنى أوصاف الريافة؛ وليس له شبيه فى الثقالة، لكونه فى وصف ذوى الرذالة. واعلم أن كل شرح لا بد له من اسم يناسبه، وعلم عليه يقاربه، وقد سميت هذا الشرح « هز القحوف بشرح قصيد أبى شادوف ». وأطلب من القريحة الفاسدة، والفكرة الكاسدة، الاعانة على كلام أعرفه من بنات الافكار يحاكى كلام ابن سودون؛ فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة؛ لأن النفوس الآن متشوقة إلى شىء يسليها من الهموم، ويزيل عنها وارد الغموم ».

وأكبر الظن أن هذه الهموم والغموم التى يشير إليها الشربينى، إنما هى ما كان يصبه العثمانيون وأحلافهم من المماليك على رءوس المصريين من أسواط العذاب. ودائما نجد مصر حينما يجثم على أنفاسها كابوس دولة غاشمة تنفس عن همها وغمها بالفكاهة الساخرة على نمط ما صنع ابن مماتى بقراقوش فى كتابه «الفاشوش» وعلى نمط مايصنع الآن يوسف الشربينى. وهو لا يتخذ من شخصية بعض

الحكام العثمانيين أو المماليك ما يريد من هزل وسخرية ؛ فقد كان الحكم العثمانى قاسيا ، وكان الناس لا يستطيعون أن يعرضوا فيه لحاكم بالتشهير فضلا عن الفكاهة والتندير . ومن أجل ذلك ارتد الشربينى إلى الشعب يصور ما هو عليه من فقر وجهل ، فى أسلوب لاذع من السخرية والتهكم ، وقد صور أثناء ذلك ظلم الكشاف والملتزمين ومن يجمعون الأموال والضرائب ، كما صور نظام السخرة أو ما كانوا يسمونه « العونة » وكيف كان يسخر الملتزمون أهل الريف فى «الوسايا» بدون أجر ولا ما يشبه الأجر . ولو أن الشربينى أفاض فى تصوير هذه الجوانب لكان كتابه طرفة تاريخية حقا ، ومع ذلك فقد ألم بها إلماما وألمع إليها إلماعا ، وإن كان لم يتسع فيها فانه اتسع فى وصف النواحى الاجتماعية للناس فى عصره . وكتابه من اجل ذلك يعتبر وثيقة هامة فى تاريخ هذا العهد وتاريخ مصر فيه .

وقد قسم الشربينى شرحه «هز القحوف» إلى جزأين كبيرين : جزء خصصه بالتندر على أهل الريف وتصوير ما هم فيه من جهل وفقر ، وجزء خصصه لشرح قصيدة أبى شادوف وبيان ما خفى من ألفاظها وغمض من معانيها . وإذا رجعنا نستعرض الجزء الأول وجدناه يقول فى مفتتحه إن أهل الريف « ليس لهم انضباط . وأحوالهم شياط وعياط ، ووردهم عند الأسحار ، التفكر فى الغنم والأبقار ، وتسبيحهم فى الظلام ، هات النبوت والحزام ، وحط العلف ، وهات الكلف ، قال الشاعر :

إن المذلة فى القرى ميراث
علق لثورك جاءك المحراث

يصف عرسا من أعراسهم ليتندر على أفعالهم ، وليضع تحت عين القارئ جانبا من معيشتهم ، وقد تظرف فروى عن بعض شعرائهم :

يا عروسه يا ام غالى
إنجلى ولا تبالى
إنجلى يا وجه بومه
زاعقه وسط الليالى
وجهك بالنقش يشبه
وجه ضبعه فى الرمال

ويتنقل الشربينى بعد ذلك إلى بيان ما كان عليه أهل الريف من غفلة وبله وفقر . فمن ذلك أن شخصاً منهم رأى فى مصر سمك (البساريا) فظنه الكنافة التى يتحدث الناس عنها . ويرميهم الشربينى دائما بقلة الذوق ؛ فمن ذلك أن شخصاً منهم لقى صديقاً له وقد اشترى بردة من الصوف ، فقال له : « دى بردتك ، فقال له : عبدك وجاريتك ، فقال له: بكم اشتريتها ، فقال له : بداهية كبيرة ، فقال له : تلفك وتلف (وليداتك) فى الشتاء . » ومن ذلك أن رجلا منهم اشتكى شخصاً إلى القاضى قائلا إنه نزل حقله بدون إذنه واخذ منه برسيما لدابته . فأحضر القاضى المدعى عليه وسأله فاعترف إلا أنه اتهم المدعى بأنه ضربه ضربا مبرحا . فسأل القاضى المدعى كيف تضربه ، فرد عليه قائلا : « أتابيك يا قاضى

تور ، وأنت إذا نزلت غيطى ، يا هل ترى أضربك ، أكسر قربك ، ولا أخليك تطلع سالم ! » . ويقص الشربينى بعد ذلك نوادر تدل على الجهل الذى كان سائداً حينـذاك ؟ فمن ذلك ان رجلا منهم سأل آخر : « إيش هجاك بربق ؟ فقال له : به ، ره ، به ، قف ، واو ، فقال له : إيش عرفك أن فيها واو ؟ فقال له : دلتنى عليها النقطة التى فوق الواو . فقال له : إن عشت تبقى فصيح لأخوالك . » وصلى رجل منهم ، فلما قرأ الفاتحة وبلغ قوله تعـالى : « إهدنا الصراط المستقيم » أبدل النون ميما ، وقال : إهـدموا الصراط المستقيم . ومن الطرف التى يقصها الشربينى فى هذا الباب أن امرأة شكت ابنها للمعلم الذى يعلمه وقالت إنه يؤذينى أثناء الصلاة . فلما سأله لمـاذا تفعل ذلك ؟ قال : لأن صلاتها « لافيش ولاعليش » سلها كيف تصلى . فطلب منها المعلم أن تقرأ الفاتحة ، فقالت تواً : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . إذا جاك الحاج نصر الدين افتح له الباب ولو كان طواب » فقال لها المعلم : قاتلك الله ماهذا قرآن ماعدا البسملة والحمدلة وزجرها وطردها . ويترك الشربينى عوام أهل الريف إلى فقهـائهم ، فيتسع فى التندر على جهلهم اتساعا شديداً . فمن ذلك أن شخصا سأل أحدهم عن تفسير قوله تعالى : « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » ما معنى أقلعى فقال هذا الجاهل : أى سيرى مثل المراكب المقلعة . ومن ذلك أن فقيها منهم ذهب إلى أحد العلماء فى مصر وطلب منه أن يقرأ عليه أجرومية النحو على مذهب الشافعى ، وهو مذهب معروف فى الفقـه الاسلامى . وسعى رجل من الأعيـان عنـد قاضى القضاة بمصر كى يعين فقيها منهم ببعض المحاكم ، فلما حضر عنده سأله هل تحفظ القرآن قال : نعم ، أيد الله مولانا القاضى ، وعندى مصحف مليح بخط المؤلف . فتحقق القاضى جهـله وطرده . ويروى الشربينى أن فقيهـا منهم دخل على الشيخ الحميدى شيخ القرائين فى عصره فقال له : هل عندك مختصر القرآن ؟ فقال له : اجلس . ثم تصادف أن شخصا دخل عنده وطلب منه مختصر مسـلم المعروف فى الحديث ، فلما قال له أريد مختصر مسلم هل هو عندك ؟ قال له : نعم خذ هذا ، وأشار إلى فقيه الريف . ولما سئل لماذا يريد هذا المختصر قال لأن الأولاد يحفظونه بسرعة عن القرآن فهو طويل ، وحينئذ ضحك عليه الحاضرون .

ويعرض الشربينى بعد ذلك طرفا من خطبهم يوم الجمعة عرضا لا يلم به القارئ حتى يغرق فى الضحك . واستمع إلى هذه الخطبة :

« اعلموا يا أهل بلدنا أن عندكم قمح كتير وتبن وشعير ، وأنتم فى خير من رب العالمين فأتم تفيقوا لزرع الوسـية ، وإلا صبحكم الـكاشف بداهية وبليـة ، وغداً تسرحوا للعونة والسـخر ، وفيقوا الغنم والبقر ، والختوا أبياركم ، وفيقوا لدوركم وجداركم ، واكرموا الخطار ، بالعدس والبيسـار ، تنجوا من عذاب النـار . على إيش ياحبايب تهجرونا بلا سبب ، الله ، الله ، قولوا لا إله إلا الله ، من وحد الله ما خيبه الله ، آمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والخطبة عامية خالصة ، وفيها ما يدل على بؤس القوم وأن طعامهم « العدس والبيسار » كما أن فيها ما يدل على بطش الـكاشف ، وما عرف به هذا العصر من « العونة » أو السخرة . ونحن لا نصل إلى قوله : على إيش ياحبايب ، حتى نفزع إلى الضـحك على هذا الخلط فى خطبة يوم الجمعة التى أريد بها إلى الوعظ الدينى فاذا هى تخرج إلى هذا الهزل . ولعل أطرف ما رواه الشربينى فى هذا الصدد أن عالماً دخل إحدى قرى الريف ، فتوجه إلى المسجد ليصلى صلاة الجمعة ، وهناك رأى أهل القرية جميعاً داخلين فى المسجد « وكل واحد منهم معـه

قنة من خوص وفيها مغرفة وخشبة وسكين من حديد وفأر ميت معلق فى عنقه » فتعجب من فعلهم ومكث ينظر ، وإذا خطيبهم جاء فى نفس صورتهم ، فتقدم منه وسأله عن هذه الحال ، فقال له : أنا الذى أمرت بها . فقال له : هذا الأمر باطل والصلاة باطلة ، وما الذى دفعك إلى ذلك ؟ قال : حديث قرأته فى كتاب عندى يسمى كتاب التيه ، ولفظه حدثنى يحيى بن يحيى عن شعبان النورى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تصح جمعة أحدكم إلا بقفة ومغرفة وخشبة وسكينة وفار . فطلب منه الكتاب وإذا هو كتاب التنبيه صحفه بالتيه ، وإذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تصح جمعة أحدكم إلا بعفة ، فصحفها بقفة ، وسكينة صحفها بسكينة ، وخشية صحفها بخشبة ، ومعرفة صحفها بمغرفة ، ووقار صحفها بفار . وأما سند الحديث فهو حدثنى يحيى بن يحيى عن سفيان الثورى وقد صحفه على النحو السابق مما يدل على جهله وسوء فهمه .

ولعل القارئ قد لاحظ أن أساس هذه الفكاهات هو المفارقة فى المنطق ، فان الحقائق تنقلب صورها أمامنا ، وتبدو فى أشكال معكوسة . وقد كان ابن سودون على ما مر بنا فى عددين سابقين يقيم فكاهته على هذا الأصل . ويظهر أن الشربينى كان يتأثر به فى هذا الجانب تأثرا واسعا ، وقد ذكر فى مقدمة شرحه ، وأشاد به غير مرة فى كلامه ، وقد رآه يكتب خطابا على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبويه فى القاهرة ، وقد أخرجه فى صورة مضحكة ، فنقله عنه ، وأضاف إليه مكتوبا أرسله بعض فقهاء الريف سنة سبع وأربعين وألف كما يقول وهو يجرى على هذا النمط :

« السلام من الفقى أبو على اللى اسمه محمد ، على حضرة صاحبنا اللى يطالع فى القرآن زى ما يطلع الزرع فى الغيطان ، ويتكلم بالفهامة ، ويا ما له علينا شهامة ، اللى يبيع الكتب المنظومة من الكلام زى قصة الجارية تودد ، والورد فى الأكمام ، حاوى الكتابة فى السطور ومن يعرف كتاب الفخ والعصفور . وانا فى شوق واشتياق لا يحمله جمل ولا ناقة ولا حمار ولا حمارين ولا بغل ولا بغلين ولا زرافة . وأنا كنت أريد أجيك وحياة راسك ما عوقنى إلا سر موجتى مقطعة . وأنا أقول لك : شوف لى كتاب كنت شفته من زمان ، وسمعت به ، آه عليه ، ويا ما قالوا لى عليه الناس ، وهو قصة مدينة النحاس ، وما جرى فيها من العجايب والغرايب . وأنا امبارح كنت رايح أشيع لك كلام افتكرته وعاود نسيته ، الله يسامحك ويسامحنى ، الله ، الله ، لا غالب إلا الله ، والسلام عليكم وعلى من كانوا جيرانك على اليمين والشمال . وكتب هذا الكتاب أبو على واسمه محمد وكتب عنوانه : توصل دى الورقة مع أبو عمارة اللى يبيع فى بلدنا الفول الأخضر والمش والزيت الحار يوصلها لبولاق وواحد يبقى يوصلها لسوق الكتب اللى يقولوا فيه حراج حراج . »

وفى هذا الكتاب غفلة وتباله واضح ، وفيه أيضا هذا الجهل الذى يجعلنا نضحك لأنه يخالف مألوفنا فى العبارة والتفكير والمعرفة . وما يزال الشربينى يعرض علينا صورا مضحكة عن أهل الريف ومازجا لها ببعض النوادر القديمة التى قصها الرواة عن أبى نواس أو عن غيره . وإنه ليقف عند شخص ماجن حكم الاسكندرية ، وكان يسمى مرجان الحبشى ، وقد نسج نظما عارض همزية البوصيرى ، وزاد فخمسه ، كما نسج نظما آخر عارض به خمرية لابن الفارض ، وكلا النظمين فى غاية الركاكة ، ولكنهما بنيا على الهزل والخلاعة . ويقص الشربينى بعد ذلك عن عالم يسمى الشيخ محمد السلسيلى أن طبعه كان يميل للاناث حتى إنه كان لا يأكل إلا من الزبدية ، ولا يشرب إلا من القلة ، ولا يركب من الدواب

إلا الأنثى ، ولا يقبل المذكر قط . ويستمر الشربيني على هذا المنوال يقص عن عصره ، حتى إذا وصل إلى آخر هذا الجزء الأول من كتابه نظم أرجوزة طويلة تتضمن أحوال أهل الريف وأوصافهم .

ويخرج الشربيني من هذا الجزء الذى اعتبره كالمقدمة لقصيدته إلى الجزء الثانى الذى عنى فيه بشرح القصيدة نفسها . ونراه يقف أولا عند نسب الناظم وهو أبو شادوف فيذكر الآراء المختلفة التى قيلت فى هذا النسب على نحو مايصنع شراح القصائد الجدية ، ثم يتحدث عن قريته واختلاف الرواة فى اسمها ، ويستدل لكل رأى بشعر يؤيده ، وأخيرا يوفق بين هذه الآراء المتضاربة ، ثم يتركها إلى الحديث عن أسرته وخاصة أباه الذى كان يملك — كما يقول الشارح — حمارا أعرج وعنزتين وحصة فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر فرخات وديكا وأربع كيلات نخال من شعير . وما زال يتكلم عن أبى شادوف وعن والده وحياته ووفاته ، حتى إذا تم له كل مايريد عن التعريف بالشاعر وأسرته انتقل إلى الكلام عن القصيدة نفسها ، وإنه ليقف عند كل بيت من أبياتها فيشرحه شرحا مفصلا ، وهو يعتمد فى هذا الشرح على مرجع لغوى دقيق هو — كما يقول مرارا — القاموس الأزرق والناموس الأبلق :

والقصيدة نفسها ليست خفيفة الروح ، وإنما الخفيف الروح حقا شرحه لها ، وما ساقه أثناء هذا الشرح من تقاليد أهل الريف وعاداتهم فى مآكلهم ومشاربهم ، وسنتهم فى مجتمعاتهم ومجالسهم وكل مايتصل بهم . وربما كان أطرف ما جاء فى هذا الجزء الثانى من كتابة خطبتين صاغهما على نسق خطبتى الجمعة ، وقد بناهما على ذكر المأكولات والدعوة لأصنافها وألوانها الممتازة ، وهو يستهل أولاهما على هذا النمط :

« الحمد لله مستحق الحمد على التحقيق ، الذى وفق بين الفرج والضيق ، وأمر بالحج إلى بيته العتيق ، وجعل السمن البقرى للعسل النحل رفيق . أحمده حمد من عنده من الجوع دسيسة ، وأغاثه الله بقصعة من البسيسة ، بالفطير الرقيق . فملأ منها بطنه ، وأحسن بالله ظنه ، ونام على راحة من الله وتوفيق . وأشكره شكر عبد تقلع عن الحوامض والمش العتيق ، وأشهد ان سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله الناطق بالصدق والموصوف بالحق والتحقيق ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أهل الكشف والتحقيق وسلم تسليما كثيراً . أيها الناس ! مالى أراكم عن الزردة بالعسل النحل غافلون ، وعن الأرز المفلفل باللحم الضانى تاركون ، وعن البقلاوة فى الصوانى معرضون ، وعن الاوز السمين والدجاج المحمر لاهون ، فما هذا يا إخوانى إلا حال المفلسون ، وأفعال الفقراء المقلون . فجدوا رحمكم الله فى تحصيل الدراهم لتغتنموا المآكل النفيسة والمطاعم اللذيذة ... واغتنموا رحمكم الله تعالى هذه الموعظة ، ودعوا أكل المغلظة ، كالعدس والبيسار ، والمدمس والفول الحار . . . وعليكم بالأطعمة الفاخرة كاللحم الضانى ، فانه سيد طعام الدنيا والآخرة ، وعليكم بالشراب البارد ، ففيه حديث وارد » ومايزال فى هذا اللغو المضحك حتى يختم الخطبة الأولى ويتركها إلى الخطبة الثانية فيقول :

« الحمد لله مزيل الحزن ، ومزين الأرز باللبن ، وأشهد أن اللحم الضانى سيد الأطعمة ومصلح للبدن . واعلموا أن القشطة لا تترك ، وأن المهلبية أحسن وأبرك ، فتهيأوا لأكلكم وشربكم ، واعلموا أنكم غداً بين يدى الله موقوفون ، وبأعمالكم محاسبون ، وعلى رب العزة تعرضون ، وسيعلم الذين جاءوا أى منقلب ينقلبون . اللهم وارض عن الأربعة الأعيان

التين والزيتون والخوخ والرمان ، وارض اللهم عن الستة الباقية من العشرة ، الأطعمة المفتخرة ، الماوردية والمهلبية ، والشعرية بالزغاليل المربية ، والأرز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر ، والكنافة المتبلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر ، والقطايف الفارتة فى السمن والعسل ، والقرع المحشى باللحم والبصل ، والبقلاوة الموصوفة ، وخرفان القمة المعلوفة ، واليخنى السمين ، والقرمزية متعنا الله وإياكم بهم أجمعين . اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات ، واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السلطان السكر النبات ، ابن القنانى ، من أصله من القصب الملوانى ، اللهم وأيده بأرماح القصب ، وبسبايط الرطب ، وبعناقيد العنب ، واجعنا عليه من اول النهار وفى وسطه وآخره ، وانصره وانصر عساكره . اللهم وأهلك الثلاثة الفجار ، العدس والبسلة والبيسار . عباد الله من أراد خلع القبول أن تفاض عليه ، فليأكل الموز بالسكر بين والديه ، وتفكهوا قبل الطعام ، واقتدوا بسنة خير الأنام ، ولا تتضاربوا ولا تتخابطوا وكونوا عباد الله إخوانا . »

وأظن القارئ يفرق الآن فى الضحك ، فقد تناول الشريبنى هذا الموضوع الجاد الحازم موضوع خطبة الجمعة وما يكون فيها من وعظ وإرشاد ونهى بهذه الطريقة الهزلية . وإن أكثر ما يضحكنا منها أنه استعان فى الخطبتين بمصطلحات الخطباء يوم الجمعة ، فاستخدمها ، وقد تعمد ألا يترك صيغة من الصيغ التى تعود الخطباء أن يذكروها فى هذه المناسبة دون أن يحشدها فى خطبته وخاصة الخطبة الثانية ، إذ يقول فيها مثلا : « وسيعلم الذين جاءوا أى منقلب ينقلبون » . أو يقول : « اللهم وارض عن الأربعة الأعيان » أو يقول : « وارض اللهم عن الستة الباقية من العشرة » أو يقول : « اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات » أو يقول : « عباد الله » ومامن ريب فى أن هذا كله هزل ، ولكنه كان — ولا يزال — هزلا مضحكا لما يبدو فيه من مفارقة للمنطق والمألوف والعادة . والحق أن الشريبنى كان نادرة زمانه فى التمسخر والخلاعة ، والتلبيس والفكاهة .

شوقى ضيف